Issue 6235-6236 Tuesday-Wednesday 1-2/1/2019
الزمان – السنة الحادية والعشرون العدد 6235-6236 الثلاثاء– الاربعاء 25 من ربيع الثاني 1440 هـ 1-2 من كانون الثاني (يناير) 2019م
Azzaman Arabic Daily Newspaper Vol/21. UK

إرتياح في العراق

عطلة عيد الميلاد من رسائل الإطمئنان للمسيحيين

لويس إقليمس
بغداد

تلقى العراقيون والمسيحيون منهم بصورة خاصة بمزيد من الارتياح، إعلان الحكومة العراقية ليوم 25من شهر كانون أول من كلّ عام عطلة رسمية لكلّ العراقيين لمناسبة ذكرى ميلاد السيد المسيح بموجب قانون يجري سنّه. وفيما عدّها الكثيرون من ضمن رسائل الاطمئنان الموجهة لأتباع المكوّن المسيحي، رأى فيها غيرُهم تعبيرًا عمّا يتحدث به الساسة والمسؤولون في الدولة العراقية بكون المسيحيين مكونًا أصيلاً وفاعلاً في بناء تاريخ العراق ورفد حضارته في الماضي والحاضر بعصارة حبهم لوطنهم وبشدة انتمائهم إليه ومن ثمّ بتمسكهم بالأرض وجذورها الطيبة.

في الحقيقة، يأتي هذا الإعلان المفرح تتويجًا لجهود رأس كنيسة العراق، المتمثلة بغبطة البطريرك – الكاردينال لويس ساكو الذي ما انفكّ يجاهد في سبيل إعلاء شأن الوطن والدفاع عن جميع أبنائه من دون تمييز ولا اختلاف إلاّ في الرؤية الوطنية الحقيقية وفي معيار الجدارة وحب الانتماء للوطن التي يسعى غبطتُه مع كلّ الطيبين والوطنيين لزرعها ونشرها في صفوف جميع الأطياف والمكوّنات. وهناك إجماعٌ مجتمعي ونخبويّ وشعبيٌ باعتماد المواطنة معيارًا صحيحًا في تقييم المواطن وأدائه وفي عيشها بضمير وطنيّ حيّ خدمة للوطن والشعب. فالوطن يبقى القاسم المشترك الذي يأوي الجميع تحت أفيائه ويحمي كلّ أبنائه من دون تمييز مهما كان الاختلاف في الرأي والمنهج والدين والمذهب، تمامًا كما الدجاجة تحمي صغارها تحت جناحيها ولا تفرّق في لون ريشها. هكذا هي أجنحة الوطن شامخة شموخ النخيل، واسعة سعة المحيطات، وارفة الظلال، مريحة، جميلة، دافئة شتاءً ومنعشة صيفًا. قد تكون أجواء أعياد الميلاد مختلفة بعض الشيء هذا العام. فالكثير من الشوارع والأزقة والمحلات التجارية وواجهات الساحات العامة والمباني والمنتديات والمطاعم وحتى العديد من دوائر الدولة الرسمية قد شهدت مظاهر الفرح والبهجة بهذه المناسبة الجميلة التي أصبحت رمزًا للتآخي والتآلف والاجتماع. والأهمّ في احتفالات هذا العام، تلك المشاركة الوجدانية من فئات كثيرة من العائلات العراقية التي جالت الأسواق لتتبضّع ما يضفي مزيدًا من البهجة احتفاء بالعيد ولاسيّما رموز الميلاد "بابا نويل" الأسطوري وأشجار الميلاد وزينتها التي تنوعت شكلاً ولونًا وحجمًا عبر منافسات لم تشهدها الأسواق العراقية من قبلُ. وهذا ما أضفى بهجة وسعادة على العيد والمحتفلين به من داخل المكوّن المسيحي ومن مواطنيهم وجيرانهم وأحبائهم من المكوّنات الأخرى ولاسيّما المسلمين بصورة خاصة، ممّن تمنّوها مناسبة لإعادة لمّ اللحمة المجتمعية التي خفتت في السنوات الأخيرة بسبب تصاعد موجات التطرّف وبروز النعرات الطائفية وأشكال التمييز والإقصاء. عبارات جميلة سمعتُها شخصيًا من مواطنين ومن مثقفين، وأخرى تلقيتُها من أصدقاء وجيران أو قرأتها عبر صفحات الصحف ووسائل التواصل الاجتماعي المختفة. وكلُّها تدعو للتفاؤل بمستقبل واعد للعراق، وفيها ما يشير حتمًا لصحوة وطنية في صفوف المواطنين الذين أخذوا يتفاعلون مع الأحداث وينشدون خروج البلاد من النفق المظلم الذي ضاعوا فيه بسبب ظلامية المحاصصة وفساد الساسة وتمهّل القضاء بأخذ دوره كما يجب. هكذا بدا الشعور الوطني عبر المشاركة الوجدانية للمواطنين عامة، المعبّرة عن المحبة القائمة منذ الأزل في وسط النسيج الاجتماعي المتآلف عبر التاريخ. هذا النسيج الطيبُ الجذور الذي جرحه الدخلاء المتطرفون وأهانه الأغراب المفسدون في الأرض عندما زرعوا فيه أشواكًا وحسكًا وأذاقوا مَن فيه من أبناء الأقليات الدينية الأخرى مرارة الهجر والنزوح والتهديد والقتل والتهميش والإقصاء والتمييز. والأجمل في المشاركة الوجدانية والاجتماعية البارزة في هذا العام، الشعور المتبادل بين أتراب الوطن الواحد في الرؤية الوطنية والمجتمعية بضرورة مشاركة الآخر فرحته ومقاسمته حزنه على السواء في المواسم والشعائر والأعياد والمناسبات التقليدية الشعبية. كيف لا، وقد خصّ القرآن الكريم السيد المسيح له المجد، بالكثير من الآيات التي تمجّد اسمَه وترفع من مرتبته النبوية والرسولية وسط سائر الأنبياء والمرسلين.زيارة البابا بادرة أمل ورسالة اطمئنان إضافية

أما الحدث الأهم الذي يتطلع إليه الجميع، حكومة وشعبًا في هذه الأيام المباركة، وبات في حكم التهيئة اللوجستية والبروتوكولية، فهو الزيارة المرتقبة لبابا روما، الحبر الأعظم فرنسيس إلى العراق في العام القادم. فقد تزامنت فرحة الأعياد مع زيارة أمين سرّ دولة الفاتيكان الكاردينال بيترو بارولين الذي هو بمثابة رئيس وزراء لأصغر دولة في العالم، للبلاد ولقائه بالسيدين رئيس جمهورية ودولة رئيس الوزراء العراق، وتأكيد الأخيرين لعرى الصداقة والمحبة والتآلف التي تجمع العراقيين والنظرة الرسمية تجاه المسيحيين بكونهم المكوّن الأصيل ضمن مكوّنات الشعب العراقي. قد تكون هذه الإلتفاتة المهمة من لدن بابا الفاتيكان، علامة رجاء جديدة لمسيحيّي العراق والشرق ورسالة إضافية للاطمئنان بضرورة التشبث بأرض الآباء والأجداد بالرغم ممّا جرى لهم من ويلات ومصاعب ومتاعب عبر حروب عبثية طيلة الحقَب المتتالية من حكم البلاد ونتيجةً لنزاعات طائفية مقيتة بعد الاحتلال في 2003 وأخيرًا بسبب عمليات التهجير والنزوح التي وقعت على أيدي تنظيم داعش الإرهابي الذي اقترف أبشع الجرائم بحقّ أبناء هذا المكوّن وغيره من الأقليات الدينية الأخرى، ما أفرغ البلاد من الكثير منهم. ففي الوقت الذي كان عديدُهم في الثمانينات من القرن الماضي أكثر من مليون وربع مواطن، باتوا يعدّون اليوم بين ثلاثمائة إلى أربعمائة ألف مؤمن بحسب ترجيحات غير رسمية. فقد اضطر الكثير من هؤلاء الذين فقدوا ممتلكاتهم وطُردوا من مساكنهم وهُجّروا بين ليلة وضحاها للجوء إلى بلدان الاغتراب ومغادرة البلاد بسبب الفوضى الخلاّقة التي زرعها الاحتلال الأمريكي منذ 2003 وقدوم دخلاء على الوطن ليديروا دفته بعيدًا عن الحرص الوطني وخروجًا عن أخلاقيات الضمير الإنساني وإيغالاً في سرقة وهدر المال العام. في ذات السياق، تأتي كلمات اللطف والمشاعر الطيبة والتمنيات التي صدرت من لدن السيدين رئيسي الجمهورية برهم صالح ورئيس الوزراء عادل عبد المهدي خلال استقبالهم لأمين سرّ دولة الفاتيكان وترحيبهما بزيارة البابا، بمثابة تداوي للجراح التي ألمّت بأبناء هذا المكوّن من خلال سعي جهات دخيلة لاقتلاعه من جذوره أو بواسطة أغراب لا يمتّون بصلة للنسيج المجتمعي التقليدي المتآلف في أرض العراق الطيبة. فمن حيث السلطة الكنسية والروحية، يجمع بابا الفاتيكان تحت سلطته الكنسية أكثر من مليار وربع من الكاثوليك متوزعين في جميع أصقاع الأرض وفي جميع بلدان العالم. ومن هنا تأتي أهمية هذه الزيارة لكونه رمزًا دينيًا وإنسانيًا وروحيًا ودوليًا له كلمتُه التي يمكن أن تهزّ عروش الزعماء والبشر على السواء. فيما يمكن أن تسهم هذه الزيارة الميمونة برفع معنويات المسيحيين خاصة والعراقيين عامة باتجاه ضرورة التجذّر بأرض الآباء والأجداد، وفي جدوى الالتفاف حول الوطن، وفي التوجه نحو بنائه بروح وطنية وعلى أسس إنسانية بعيدة عن روح التعصّب والتطرّف والأنانية. في رأيي المتواضع، أنّ هذه الرسائل جميعًا بحاجة لتعزيزها برسائل أخرى أكثر اطمئنانًا، ليس لصالح أبناء المكوّن المسيحي فحسب، بل كي تشمل جميع شرائح وأطياف الشعب العراقي المنكوب وبخاصة منهم الأقليات التي تعرّضت لنكبات في نسيجها وتركيبتها وممتلكاتها وكرامتها. ومن رسائل الاطمئنان المنتظرة بالأفعال وليس بالأقوال:

- تعويض الدولة للمتضررين من النازحين والمهجّرين في الدور والممتلكات والمصالح سواء بسبب جرائم داعش أو نتيجة للعمليات العسكرية.
- إعادة النظر بالمناهج الدراسية التي تحرّض على الفتنة وتميّز بين فئات الشعب بسبب الدين والمذهب والعرق وفيها نبرة تطرّف توحي بفكر مريض وأزمة في تقبّل الآخر.
- إنصاف أتباع المكوّنات الدينية غير المسلمة التي تناقصت أعدادُها ومنهم المسيحيين والإيزيديين والصابئة وغيرهم للأسباب التي لا تخفى على أحد في مسألة تولّي المناصب في الدولة بعيدًا عن أساليب المحاصصة المتبعة في الحكومات المتعاقبة منذ السقوط في 2003.

احترام التعددية الدينية والمذهبية والإثنية والفكرية وعدّها جميعًا مصدر قوّة وغنى للبلاد وليس ضعفًا، وإشاعة ثقافة الحوار والتفاهم وتطبيق مبادئ السلم والمحبة والعدالة والمساواة واحترام كرامة الغير المختلف وصولاً إلى العيش المشترك الكريم للجميع.

تلكم من رسائل الاطمئنان التي ينتظرها الشعب عندما يتخلّى الساسة وأصحاب النفوذ وزعماء الأحزاب عن نواياهم الخبيثة اللاوطنية التي تشقّ صفوف الشعب، فيتجهوا عوض الركض وراء مصالحهم الضيقة الشخصية والمذهبية والحزبية نحو بناء دولة مؤسسات فيها يُحترم الجميع على أساس المساواة والعدالة بلا تمييز ولا إقصاء بسبب الاختلاف في الدين والمذهب والطائفة، إلاّ في مقياس الجدارة والكفاءة والانتماء للوطن.

هذا ما ينبغي أن نسعى إليه جميعًا مع كلّ ذوي الإرادات الصالحة وأصحاب النوايا الحسنة وصولاً لتعزيز عرى التعايش السلمي المشترك الذي افتقده العراقيون. عسى أن تتحقق أمنية رئيس البلاد برهم صالح ودعوته بالترتيب لعقد مؤتمر للحوار بين الأديان والطوائف في مدينة أور لمناسبة الزيارة المرتقبة لبابا الفاتيكان للعراق في العام المقبل، فتكون أرض النبي إبراهيم منطلقًا لاستئصال الفكر المتطرّف الأعمى ولتعزيز وحدة الصف وبناء السلم الأهلي وعودة اللحمة الوطنية والمجتمعية بين المكونات العراقية لمجابهة الدخلاء ووضع حدود لسارقي ثروات البلاد والمفسدين وسارقي قوت الشعب والمتاجرين بقضاياه ومآسيه.

الكرد والدولة .. و إلى دولة

شامل حمدالله بردان
اربيل

مقدمة.

الاعلان عن الاستعجال في اتمام العمل، لا يدخل ضمن دفوع الشخص التي تقبل له عذرا، اذا ما خرج العمل للواقع.

ليس معيبا الاعتراف بالاستعجال، لكن كتابة دستور دولة تباهي العالم على لسان رعاياها، انها خلاصات تراكم حضارة موغلة في التاريخ، ستكون مؤشر نقد يشكك في طاقات الكتبة الفكرية و القانونية و السياسية و الاجتماعية. لقد تم فهم التصريح الذي ادلى به الخصماء في العملية السياسية العراقية، والذي صدر بلغات العراق و لهجاته كلها، على انه دعوة لأعادة كتابة دستور كامل او كتابة بعض مواده، بهدف تقديم سند سام في منظومة الدولة يكرس سهولة سيطرة طائفة بذاتها فلا تعود الحزبية التي كوادرها من طائفة الاكثرية تعيش قلقا كل اربع سنوات، لأنها اذا جمت نفسها بالدستور، صار تجدد بقائها حاكمة امر مفروغ منه، وحينها سيخرج للوجود تمثيل مرجعي يقدم اسماء ابناء من الطائفة لحكم البلاد، فالطائفية الدينية تتجاوز وان ليس دوما الحدود التي تبذلها القومية المختلفة اذا ما اشترك ابناء قوميتين بفكرة مذهبية واحدة، ففي الوقت الذي يجد فيه الشيعة اخوة لهم في عقيدتهم بين الكر و التركمان، فان السنة يجدون نفس المشترك عربيا و كرديا و تركمانيا.

في سنة 2003 احتلت الولايات المتحدة الامريكية العراق، وانهت رسميا وجود حزب البعث العربي الاشتراكي في الدولة، مسرحة اكثر التنظيمات التي قد تشكل خطرا على مشروعها في المنطقة. كانت خرطة الوضع العراقي، قد استقرت على حكم لصدام حسين على كل العراق بأستثناء كردستان التي تبدأ عند الامريكيين يوما من خط منطقة حظر الطيران العراقي شاملا لكل تحرك سياسي و غير سياسي، بما يعني واقعا سيطرة قوى المعارضة الكردية على المنطقة. كان العراق، يعيش فصل العقوبات الدولية، وكردستان تعيشها مضاعفة، فالحصار على الحكومة العراقية، جعلها تحاصر بدورها المنطقة الخارجة عن سيطرتها محاولة منع اي تطور في الاحداث على الارض يهدد بقاء النظام العراقي. وشهدت فترة ما بعد الطرد من الكويت الى الطرد من السلطة، موجات هجرة قام بها عراقيون من كل عرق، ليستقر الواصلون الاحياء المقبولون، ضمن مجتمعات اخرى يندمجون فيها اقتصاديا، ومنهم حزبيون اندمجوا مع المهجر و ابقوا عقيدتهم و طورها بعضهم مستغلا مساحات الحرية الفكرية في المهجر. نشط الحزب الجمهوري الامريكي في تهيئة الاجواء للقيام بحرب جديدة، واستعد الجمهور العراقي المتعب معه، لتلقي الخبر الاول في 2003مثلما تلقاه قبل ذلك التاريخ بأثنتي عشرة سنة، وسقط النظام في الثانية و تم تحجيمه في الاولى. تجول الامريكيون في العراق، وهرب مسؤولو النظام من العراق، وصعق عراقيون لمشاهدة عراقيين ينهبون العراق.لم يعد للأعلام العالمي من مادة رئيسية مثل مشروع الحرب في العراق. كانت كردستان قد عقدت مؤتمرا لممثلي قوى المعارضة العراقية بمصيف صلاح الدين، وهناك بدا ان السعي للهدف شيء وتحقق الهدف شيء مغاير، فلقد ترسخت فكرة المعارضة لأيمان شبه راسخ ان نظام صدام حسين لن ينته بالشكل الذي اراده الامريكيون، الذين افهموا الجميع ان نضالهم المحترم لا قيمة له بلا قوة مثل قوتهم التي اختصرت وذللت الصعوبات لتشكل صفحاتها هي في التاريخ من انها هي وليس غيرها من يقول في السياسة كن فيكون. التقت القوى العراقية في بغداد و اربيل و السليمانية، التقت كل قوى مع كل القوى، والتقت كلها مجتمعة و منفردة مع الامريكيين و التقى بهم الامريكيون، والتقت القوى مع قريبتها فكريا. اكتشف كل من الامريكيين و العراقيين انهما وبعد دخول مرحلة الواقع الجديد، تفاصيل في المقابل لم تكتشف من قبل، فستراتيجية الامريكيين ليست ثابتة و كذلك اشخاصها يبدلون بأشخاص لديمومة العمل، بعكس الجانب العراقي الذي لا يتغير مسؤولوه بوجوه اخرى و عقول بنفس سرعة الامريكيين، وظهر ثمة فرق بين توجه الامريكيين لعراق يريدونه و بين مايريده العراقيون. زالت الصدامية من السلطة، ولم تزل من العقلية، وتمزقت هوية العراق الصدامية البعثية التي لم يرض بها الامريكيون و المعارضون العراقيون، وظهرت هويات اخرى غيرها لكنها لا تخلو من تأثرها بهوية صدام. تلاقت في العراق كل المتضادات الفكرية و السياسية و العسكرية، تلاقت على ارض و بين شعب منهك كباره، تائه صغاره، متأثر بدعاية عقائده الطائفية و القومية. اخيرا، هذا ما اعرفه، من يعرف اكثر فلينشر معرفته مشكورا.

1

لا فرصة للتاريخ القديم.

وصل زالمي خليل زاده الى مصيف صلاح الدين، ليعلم الحضور السياسي و الحزبي، ان الحرب ستقع، وان الحضور مطلوب منه تشكيل حكومة بديلة. بعد تفجيرات ايلول 2001سيكون العراق الهدف الثاني بعد افغانستان، هناك ضرب نظام اسلامي سني، وهنا سيحل نظام اسلامي شيعي!. لم تكن القوى الرئيسية التي تصدت للعملية السياسية تجد تعاطفا بينها او من الامريكيين اذا ما اثاروا التاريخ القديم لهويتهم، فالامريكيون ارادوا– او هكذا بدا– نظاما يسندونه لتقديم مشروع وطني عراقي، لكنهم كشفوا عن عدم فهم للمجتمع العراقي، الذي اعتقدوه شبيها بما الفوه من العراقيين الذين التقوهم خلال فترة التجهيز لمشروع الحرب، والعراقيون انفسهم لم يفهموا الفصل بين التعاطف الامريكي مع الهويات القومية و الطائفية العراقية، وبين المصلحة التي تبتغيها امريكا من دخول الحرب و النتائج المربحة لها بعد ذلك. شخصيا، اثق بأن احداث ايلول 2001نبهت السياسة الامنية الامريكية لخلق منطقة حرب بعيدة عن المصالح الامريكية على اراضيها، و الاستعداد لغزوات تشنها امريكا وغزوات تشن عليها، لكن في المكان الذي تختاره هي بالتأكيد خارج حدود الولايات الامريكية الجغرافية. بيئة العراق التي سبقت الحرب بقليل ثم رافقت العمليات العسكرية الاساسية و الوجود اللاحق لآلاف جنودها، حفزت شراهة التنظيمات الاسلامية المسلحة التي عملت ضمن فصائل(المجاهدين) في مواجهة القوات السوفياتية و الروسية في الجمهوريات الاسلامية ضن الاتحاد الذي تفكك فيما بعد. جاءت التنظيمات للعراق، وهي مسبوقة بالتعاطف العربي السني الذي فسر الحملة بغير الشكل الذي تقصده تنظيمات (المجاهدين)، فالسنة العراقيون فهموا ان الدولة بحكوماتها السابقة ليست غريبة عن عقيدة طائفتهم، فيما الانطلاقة الشيعية والتحفز للحكم لن يكون بمصلحتهم، ليس فقط لأنهم طائفة مغالية، بل لانهم ينحدرون من طبقات و محافظات لا ترقى لما يراه السنة في انفسهم من تحضر اجتماعي ووطنية نقية خالصة غير تبعية. قبلها و لسنوات تشارك العمل السياسي و الحزبي و المجتمعي الكردي الشيعي عداوة او لنقل عدم ثقة من النظام، ورفضا حزبيا قوميا كرديا و طائفيا شيعيا لأستمرار سياسة البعث، ومع ذلك فقد كان النظام يستميل قسما من الاثنين ليعملا معه، وليقدم نفسه لا كما يصفه منقدوه داخليا و دوليا.

2

تحركت تنظيمات شيعية من خارج العراق و داخله، ضمن حدود الطائفية لا الوطنية المدنية، لا لتمسك الحكم، بل لتعوض ما ترسب في داخلها من اقصاء جرى ليس من حكومة البعث، بل اقنعت نفسها انها تحمل مظلومية يتراوح ميلادها بين سنة وفاة محمد و سنة مقتل علي وسنة مقتل الحسين، وان ذلك الخزين الطائفي لابد ان ينال تعاطف و قبول الكل بما سيجده الشيعة تعويضا عن الماضي!. لم يقبل الامريكون بذلك، و اعترض السنة، واخر الكرد تحفظهم، لما وجدوا انفسهم– وهم ايضا اكثر من فريق فئمة فوارق حزبية و ان كان بارزاني اقدمهم و اكرهم تأثيرا في الشارع لأسباب تاريخية– بين صراع طائفتين عربيتين، ووجود امريكي لا يتفق مع اي طرح فردي كان ام جماعيا عراقيا لا يتوافق مع رأيه. دخلت ايران و سوريا و لبنان و تركيا و السعودية و الكويت الصراع العراقي، ودخلت الاردن ايضا، كما دخلت دول اخرى في الصراع، بعض الدول دخلت بشكل رسمي رافضة الاحتلال مسندة الطائفة التي تشترك معها عبر احزاب عراقية، وبعضها دخل ليكون مكانا لأستقبال الفارين السياسيين، وقسم منها وجد العراق افضل منفى يدفع اليه بتمرديه الذين يقلقون الانظمة المستقرة نسبيا، ودول دخلت لتصفية حسابات سابقة مع العراق، وبعض تقاسم مكانة العراق السابقة تجاريا و سياسيا. لم يشهد سوق الترويج الاعلامي المعاصر ازدهارا، مثل ذاك الازدهار الذي يسجل للاعلام العراقي الداخلي، فقد برر العراقيون للاحتلال بشكل لم ينجح الاحتلال نفسه بتبريره للجمهور العراقي، وراح كل فريق حزبي يبني صورة مشرقة لممثليه وهم يلتقون عساكر الاحتلال و مدنييه من السياسيين، وتبنى الاعلام العراقي خطاب العداوة للمحيط نيابة عن الامريكيين، فبعد فترة ثبت للامريكيين ان انشغالهم بأعلام مواطنيهم و الغرب بما يفعلونه في العراق، اصبح افضل و اخف وطأة من اقناع حضارتين، فلقد تكفل الاعلام العراقي بمخاطبة جمهوره بما يرضي الامريكيين.

3

دخلت ايران للعراق بعد دخول الامريكيين بسرعة، و اتصلت و حركت الشارع، بما يضمن حدودها هي و مكانتها في بغداد ، وكانت كما اشيع شعبيا، انها تحكم العراق ليلا و يحكمه الامريكيون صباحا. نجحت الاستخبارات الايرانية في مد خطوط تمويل معلنة او مخفية مع الفصائل المستعدة للمواجهة مع الجيش الامريكي، فكل لغم كان ينفجر و على اي هدف، كان يقنع الجميع ان امريكا لن تصمد كثيرا امام خصم تختصره و لا تعرف عنه الكثير!. مثلما كان التمثيل السني قليلا في المعارضة فقد كان تمثيله قليلا في الحكومة التالية للأحتلال. ظهر الفرق بين الطموح و الواقع، لما وجد السياسيون شيعة و كردا، ان الحكومة لهم، وان لا وقت للحديث و العمل حاليا، لا لأقامة دولة الحق الالهي، ولا الدولة الكردية. اثرت الدعايتان القومية و الطائفية عند السنة، بموروثهم وبشجيع من دول الرعاية للمشروع السني، فرفضوا فكرة الانتخابات الاولى، لكن الامريكيين رمموا المشهد بوضع رئيس سني للجمهورية، وعربي ومن عشيرة كبيرة.

لشهور اتحدت الفصائل العسكرية الشيعية الداخلية التي اتصلت بها ايران مع الفصائل المسلحة السنية الداخلية التي قوامها العسكريون السنة و المقاتلون العرب و المسلمون الاجانب لضرب الامريكيين و المتعاونين معهم، لكن الاتحاد ذاك لم يكن سوى في خط عمل دون تنسيق بين الفريقين الشيعي و السني. سرعان ما اثارت تسمية الرفضة و الصفويين كلا الفريقين الشيعيين القادم من الخارج و الداخلي و ايضا اثارت الشيعة غير المنتمين حزبيا، وهي تسمية اختصر بها الفريق السني الرافض للواقع الجديد، الشيعة، الذين ردوا على التسمية بتسمية، فجعلوا مختصر السنة بكلمة نواصب. غطت المواجهة بين الطائفتين على كل مواجهة، وتشكلت خريطة امنية و عسكرية معقدة، ففريق شيعي ينسق مع الامريكيين و لا يريد خسارة الدعم الايراني، فيما فريق شيعي يضربهم، وثلة سنية تريد ان تكون في الدولة لتتبنى التمثيل لمصالح السنة عبر التنسيق مع الامريكيين و لا يريدون خسارة الدعم الخليجي، فيما فريق سني يضربهم، و الامريكيون يريدون انجاز ما يمكن ان يقنع ناخبيهم بجدوى الحرب التي توازي عدد الضحايا من جنودهم، لكنهم صدموا او هكذا بدا، من الاداء العراقي الذي يؤمن بالفرصة و الاثراء السريع على حساب سمعة سلطة الائتلاف. ابقى البيت الابيض على سياسة حثيثة تتيح للرئيس جورج دبيليو بوش الترشح و الفوز بولاية ثانية لأستكمال مشروع دفع الارهاب بعيدا عن الولايات المتحدة.

اغرى المكون الشيعي نفسه في الغوص بالماضي، وقدم دعاياته التي وجدت طريقها عبر اعلامه ليكرس نفسه خادما لطموحات العقيدة التي تقوم على مفهوم العصمة و الدولة الالهية، سامحا لعوام الشيعة بأطلاق عنان المحبة التي ستكون اصواتا مضمونة تختار الخادم الافضل، فخرجت رئاسات الاحزاب تسعى مشيا للمراقد و تمارس طقوس التاريخ البكائي، تعترضها مجاميع من الطائفة السنية التي وجدت ان الجهاد ضد الرافضة اسهل و اكثر ثوابا من جهاد المحتل!. وجراء تفجر العداء بعلنية بين الطائفتين، انكسرت هوية المواطنة و خسرت الحكومة البديلة ثقة عوام الشيعة بها، كونها اي الحكومة تحمي نفسها وتعجز عن حماية شيعتها!. بدأ الشباب العراقي العربي من العوام، بتفضيل الانخراط ضمن الفصائل الشيعية و السنية او خلق ارتباط بها يمكنه من حماية نفسه بعد ان لمس عدم نجاح الدولة في تشكيل قوى امن تتمتع بالقدرة. احتفظت كردستان بهويتها القومية في الداخل، و بتمثيلها في الدولة ببغداد، لكن صبرها و خشيتها من تكرار الماضي لم يزيلهما وضع رئيس للجمهورية كردي، فلقد كرس الدستور الذي يبدو انه كتب وسط استحضار لصورة صدام حسين و صلاحيته، قد حول الصلاحيات تلك لرئيس الوزراء في الدولة الجديدة، ففات الكتبة ان الصلاحيات المفرطة هي التي تخلق صداما ثانيا في مجتمع مثل العراق يومها!. ومثلما كان الحزب الطائفي سنيا ام شيعيا وفيا لطريقه الوجودي، كان الخط القومي الكردي وفيا لشعارته، فلقد تسلح دوما بماضيه السياسي و العسكري، و بأختلافه القومي مع دولة يحكمها اكثرية عربية، وانه كان دوما الخصم و الفريق الذي يخطب المعارضون وده للوصول للسلطة، مثلما تفعل اي حكومة في العراق تريد البقاء، وقد جربت ان اعنف وسائل القمع لم تحل دون تمسك الحزب بطريقه. عليه فقد تحسس الكرد من الخلط الذي يمارسه رئيس الوزراء بين حزبيته الشيعية ضمن تنظيم الدعوة، وبين طموحه لينظر اليه انه المسؤول التنفيذي الاول الذي يريد بسط نفوذه على مناطق الاقليم الكردستاني، في وقت كان فيه عاجزا عن بسط نفوذه في حي او شارع من العاصمة، بل داخل المنطقة الخضراء!. لم تكن سنة الحياة لتتوقف من اجل القدر العراقي، فلقد مات قسم من قيادي الاحزاب المسيطرة بشكل طبيعي لبعض و جنائي لأخر، فمحمد باقر الحكيم كان اول و ابرز الاسماء التي اطيح بها بعملية امنية، ليحل اخوه المريض رئيسا للحزب، ثم ليموت بعد ذلك ناقلا زعامة الحزب لولده، الذي لم يحتمل قياديون يكبرونه تجربة و انتماء ان يسيرهم الابن، فأنشق حفيد زعيم الحوزة السابق مستقلا بتياره الجديد. مثلما انشق رئيس الوزراء ابراهيم الجعفري بتيار عن حزب الدعوة، واستقر حيدر العبادي على ائتلاف انتخابي قد يمكنه من تشكيل تيار رسمي مستقل عن الدعوة الاسلامية، و فرخت الاحزاب السنية تنظيمات جديدة، و انشق نوشيروان مصطفى بمجموعات ضمن كيان اسمه التغيير، تاركا الاتحاد الوطني الكردستاني.

4

برغم كل النشاط الحزبي في العاصمة، و الذي قامت به التنظيمات الاصيلة والمنشقة و المصطنعة، فلقد احتفظت مناطق النفوذ بقوتها الاحادية، فلا وجود سياسيا للسنة في المحافظات الشيعية، و لا للشيعة في الاقليم الكرستاني، ولا في المناطق السنية، فقوة النفاذ للقرار في المنطقة من قوة الهوية الاجتماعية. داخليا كان الاسلام السياسي يبحث عن قطبيته التي تعطلت بموجب القومية، فتحرك الشيعة العرب لكسب الشيعة الكرد و التركمان، و تحرك السنة للتنسيق مع المثلاء في الطائفية ضمن الكرد و التركمان، وظهر ان الخصم الاقوى للقومية هي الطائفة، وذلك اخر ما يحتاجه القوميون الكرد و اكثر ما يخشونه من متبنيات. ولئن كانت الحيازة في المنقول سند الملكية، فأن الارض لمن عليها بحكم التاريخ و الجغرافيا، وهناك كان لابد من التذكير بالمساحات الحقيقة للاقليم و ما طرأ عليها من اقتطاع و ضم و الحاق و تبديل انتماء قومي، و لئن الدين و الطوائف لا يفسرون الارض كما تفسرها القومية، فقد نطق اللسان العربي بقومية في وجه اعتاده الكرد طائفيا عن شركائهم من الشيعة اولا و السنة ثانيا، وكانت موجة القومية العربية صادمة للكرد لما تحركوا لضم مناطق كردية في التاريخ.

اجمع خصماء الوطن الداخليون على ان الدستور يجري تفسيره بأنتقائية، وذلك اجماعهم الاول بعد تصادمات كشفت ان شركاء العمل المعارض ليسوا هم نفس شركاء السلطة، ثم تصاعدت الازمات ليجري الحديث بعلانية على ان الدستور كتب بعجالة، وانه ليس مقدسا فلا يلغى او يعدل. زحف الخلاف اكثر وفق الذاكرة، ليحرق مشتركات كان معولا ان تبقى و لا تتأثر، فالكرد لا يذكرهم تاريخ تأسيس الجيش العراقي بحدث يدعو لاعتزاز بالمؤوسسة العسكرية التي كانت اداة لحرب ضدهم، و الشيعة اعتزوا بالجيش لاحقا و كرهوه سابقا، فلم يعتز الفريق الديني الشيعي بالجيش الا لما صارت السلطة للطائفة المظلومة. ورغم اعتزاز الحزبية الكردية بتاريخ 1958الذي حول العراق لجمهورية، الا انهم يرون ان كريم قاسم اظهر العداوة باكرا، مادفعم للثورة عليه بعد ثلاث سنوات، و ان العراق مرتبك في تواريخ النشئة و الاستقلال، فلا هي العام 1921 حيث يتوج فيصل على الكيان السياسي، و لا هو العام القاسمي للانقلاب، و العام ?1963حيث حل عارف رئيسا لتصحيح المسار و لا هو العام 1968حيث دولة البعث، وينظرون الى نيسان 2003سنة خلاص فيما ينظر اليها الاخران السنة و الشيعة على انها سنة سقوط.

لم تعدم كل الاحزاب العراقية وجود انتهازيين في صفوفها، بل ان التحكم بتدفق المال العراقي، تمكن من خلق حركات و تيارات ضد نوعي جديدة او استمال احزابا اصيلة كلها او بعضا من المؤثرين فيها، للعمل وفق صيغة تقدمها بغداد، اي الطائفة الاقوى، اي الحزب الذي يقدم رئيس الحكومة، تحديدا الحلقة التي تحيط بالرئيس فيندمج فكرها و صوتها بفكره و صوته، اولئك ضمنت لهم مكانتهم حرية حركة ورصيد وعود للتنسيق نيابة عن رئيس الوزراء، لكن رئيس الوزراء مهما كان قويا، فهو ينكسر اذا طرح نفسه وطنيا يرضي الكل، فأن مال للكرد خسر، وان التقى مع السنة خسر، فالاحزاب و الشخصيات الطموحة لمحله، تعرف كيف تشكك فيه لدى مرجعية الشيعة. مرجعية الشيعة في العراق بدورها تمثل قطاع مقلدين واسعا، وهي في السياسة مقتضبة الجمل، تتبع فكرة الحديث عن المسمى دون التسمية!. فهي تعرف ان السياسة التي يقودها المحسوبون على طائفتها فيها الفساد الكثير، وان ايا من كبار الدولة يسقط بلا سندها، لكنها تكتفي بالنقد فقط ان وصلت الامور للصدام بين الناس و السلطة، حتى تفوت فرصة على زجها بالمسؤولية، لكن المرجعية لها منافس قوي هو اتباع محمد الصدر، و لوريث الصدر منافس اخر هم المنشقون عنه مع قيس الخزعلي.

الاستفتاء لم يجلب الدولة، لكنه جعلها اقرب.

لم يكن الكرد مستعدين للأنتظار قرنا اخر حتى يتبين العراقيون في الدولة الجديدة انهم ركبوا العراق وجعلوه مركبين، ركبوه بناسه و موارده ليرجعوا فيه الى الوراء البعيد، وركبوه ليثروا على حساب اي شيء و رغم كل شيء، ليكونوا الطبقة الاغنى في الدولة الجديدة. وجد الكرد انهم محرمون من المواطنة التي يتطلعون اليها، ومحرمون من موارد لهم فيها ما للاخرين، لكن الاخرين يضعون العراقيل في السلم، و يتجهزون للحرب الداخلية وهذه المرة لحرب قومية، يقودها تيار طائفي قومي عربي، لم يجد افضل من تراث البعث و الياته لتشكيل الدولة الجديدة. لم يكن الكرد يبدون ثقة متينة بالاطراف التي رعت مشروع التغيير السياسي صيف 2003 فيما يخص نية اعلان الدولة، فحلم قومية و حزب بدولة لهم فضلا عن الحق في ذلك شيء، و التعاون لايلادها شيء اخر، وهي اشبه بما جرى في 2003نفسه، فحلم وعمل احزاب المعارضة الجادة لأزالة النظام شيء و لم يكن لها ما عملت و حلمت به، وقبول قوى عظمى بتغييره خلال اسابيع شيء اخر، وقد عملته. لم تكن القضية خضوعا من المجتمع الدولي لضغوط ايرانية او تركية، بقدر الخوف من تكرار القضية مع الدول التي بها كثافة سكان من الكرد على اراض حيوية، ما يعني ان مجرد اجراء استفتاء و ان كان غير ملزم حتى للجهة التي فكرت به و اجرته، كان يعني توقعا اقليما ودوليا لضغط جديد لتغير في الخرائط الجغرافية لن يقدم مصلحة لدول كبرى مثل الولايات المتحدة و بريطانيا و المجموعة الاوربية، ذلك انها ستكون مضطرة للانشغال بمشاريع بعيدة مصالحها وكثيرة و كبيرة، وقد تنقل عدوى لمجتمعات الاقليات داخل دول اخرى. صحيح ان الاستفتاء تم تفسيره نية و عملا بشكل مغلوط من الدوائر السياسية المؤثرة، لكنه كشف جملة من متواري الحقائق كانت بحاجة لخطوة حساسة حتى تبين، فالتحول من الشعار الى العمل، كان لبارزاني، فيما خسر كل ذوي الدعاية بمجرد ردتهم عن نقطة اللاعودة التي دخلها التصويت ذلك اليوم. احتكر بارزاني مكانة الاستفتاء